

الحذف الدينامي

آلية التحليل من منظور سيميائية بيرس

د. عدنان داود عبد الحسن ، أ.د. ساجدة مزبان حسن

الحذف الدينامي

يكون الحذف دينامياً حينما يسعى المتلقي إلى إيجاد المعنى المضمّر من ورائه ، فهو حذف دينامي؛ لأنه يقود المتلقي إلى تجاوز الموضوع المباشر للتركيب لبحث عن موضوع دينامي.

والحذف بابٌ من أبواب المعاني (١)، وهو حدث لغوي يبيحه النظام النحوي، ويستثمره النظام السيميائي، ويُعدُّ " واحداً من أهم أفعال اللغة بنيةً وتركيباً، فهو على مستوى الأداء الجمالي يُعدُّ فناً به يسمو الأداء على المواضع، والمنفعيّة، والاستعمال المباشر للغة، وهو فوق هذا وذاك إجراء به تقيم اللغة معمارها نسقاً، وبه تقرأ هذا المعمار علامة" (٢).

وكما أنّ الحذف نظام يُمكن المُنتج من تشفير مقصديته في منحنيات خطابه، هو كذلك فيما يخص المتلقي؛ إذ يُوسّع من دائرة القراءة، فينتقل بهذا الحذف من كونه نظاماً لغوياً إلى كونه نسقاً سيميائياً (٣)، يثير القارئ، ويُسهّم في انفتاح الخطاب على تعددية الدلالة (٤)، ويُحفّزه على سد الفراغ الشكلي، ومن ثمّ البحث عن سبب الحذف ليشيد به موضوعاً دينامياً؛ إذ إنّ عملية القراءة التي يقوم بها المتلقي هي نوع من التفاعل بينه، وبين المنتج؛ إذ يقوم المنتج بإرسالية ناقصة، ويقوم المتلقي بسد هذا النقص شكلاً، وتأويل الجوانب المضمرة فيه؛ لأنّ من وراء الحذف دلالة يريد الشاعر إبلاغها، ونحن في هذه الدراسة نتلقى الدلالة التي أضمرها الشاعر على أنّها موضوعاً دينامياً. ومن أمثلة الحذف الدينامي ما رصده منذر عياشي في قوله تعالى (يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكون في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) (لقمان : ١٦)، إذ يقول : " إنّ مُبرّر الحذف يُحدده الوجود العلاماتي في قلب الإنجاز اللغوي. وبيان هذا كما يأتي : إنه لما كان ربنا تبارك وتعالى قد عبّر عن الخطيئة، وهي اسم كان (تكن)، وجعلها غائبة (وهذا ضرب من الحذف) فقد دلّ عليها بما كاد يكون غير متناه صغراً وحجماً، ومثّل لذلك ب (حبة خردل). ولكي يكون ثمة توازن، وتناسب بين شكل التعبير، وشكل المضمون، فقد اقتضى التركيب في شكله حذفاً علامتياً لا حذفاً نحويّاً. ... وهكذا يبقى الفعل (تك) في أقلّ حروفه وجوداً، فيؤدّي، والحال كذلك وظيفة علامتية دالة ... ثمّ إنه يُمثّل أصغر شكل علاماتي يمكن أن يظهر فيه، فإنه يحقق بهذا كله توازناً بين شكل الفعل في صغره ... وشكل التمثيل لخطيئة غير مرئية، والذي هو مثقال حبة من خردل وقيمتها . وبهذا تكون الدلالة بالعلامة شكلاً معادلة للدلالة مضموناً، ونائبة عنها في مجاري الكلام" (٥).

وعُدّ الحذف علامة سيميائية يدفعا إلى التولُّج في مكوّناته، ولا سيّما أننا نتلقى الحذف في هذه الدراسة في ظلّ منظور نظرية (بيرس)، التي تُقيّد العلامة بمكوّنات ثلاثة. إذنّ فالحذف يتكون من دالّ، ومدلول، وموضوع، فما دالّه، وما مدلوله، وما موضوعه؟ الحذف دالّ بحظوره في

الذهن وإنّ لم يتحقّق لفظاً، أمّا حينما ننظر إليه موضوعاً فإننا ننتظر كلّ جديد تأتي به القراءة التي ينشطها المؤلّ.

وقد تفاوتت اهتمامات الدارسين، وتوجّهاتهم في النظر إلى الحذف، فقد شغل النحويّون في تقعيد مواضع الجواز والوجوب، في حين تنحّص البلاغيّون الأغراض منه فصنّفوها تصنيفاً معيارياً،

أما السيميائيّون؛ فيمكن أنّ نقول على لسانهم إنّ أغراض الحذف مرجأة إلى ما بعد الإنجاز، فزاوية النظر السيميائية تجعل من أغراض الحذف مُجدّدة مع كلّ نص. " ومن ثمّ فهي المسؤولة عن إثارة المتلقي من جهة، وإنجاز صورة قادرة على التعبير عن مكوّنات الشاعر النفسية من جهة أخرى" (٦).

الثقيل

من خلل السحاب ،

سيحمل المسافر العليل

ما ترك الداء له من جسمه المذاب

ويهجر الدخان والحديد (١١)

نلاحظ في سطر (ما ترك الداء له

من جسمه المذاب)، أنّ الشاعر حذف

مفعول الفعل (ترك) وهذا الحذف ينقل

التركيب من موضوعه المباشر الى الموضوع

الدينامي، ففي دلالة المباشرة يُخبر

الشاعر أنّ المرض استقل عليه، وتمكّن

منه فما ترك من شيء، لكنّ حذف المفعول

أظهر الحال التي يعيشها الشاعر مع الداء،

ومكّن المؤلّ الدينامي من الانتقال إلى

الموضوع الدينامي، فالشاعر غيّب مفعول

الفعل (ترك) ليخبر أنّ لا شيء متروك

في جسمه لم ينل منه الداء. فحتى كلمة

شيء الدالة على القليل لم يذكرها الشاعر

تعبيراً منه على وحشية الداء، وشِدته. ومن

الأمثلة الأخرى للحذف الدينامي، قول

أحمد مطر :

أه لو يُجدي الكلام

أه لو يُجدي الكلام

أه لو يُجدي الكلام

هذه الأمة ماتت

... والسّلام! (١٢).

حذف الشاعر في هذا النصّ جملة

جواب الشرط، وحذف الجواب يوسّع دائرة

التصوّر عند المتلقّي، وهو حذف مقصود؛

إذ مرّر من طريقته رؤاه، وعبر عن بأسه

من جدوى الكلام، فالموضوع الدينامي

الذي صنّعه الشاعر بهذا الحذف إرسالية

مفادها اليأس المطلق من نهضة الأمة.

وفي نصّ آخر يقول :

تريد أنّ تمارس النضال ؟

يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى (٨)

فالصدي يُعيد ما تنطق به، لكنّ

السياب يُغيّب عنه لفظ (اللؤلؤ)، وهذا

التغييب يُحفّز المؤلّ الدينامي على تشكيل

الموضوع الدينامي الذي أرادّه الشاعر من

وراء الحذف، فاللؤلؤ، والمحار، والردى،

وحدات سيميائية؛ إذ يحيل المحار

سيميائياً على المجهول، والردى يحيل

على اليأس والقنوط، أمّا اللؤلؤ؛ فيحيل

على الأمل (٩)، وقد حذف الشاعر الكلمة

الدالة على الأمل ليضمّن هذا الحذف

موضوعاً دينامياً مفاده أنّ الأمل في هذا

الوطن مسروق بعيد المنال، وفي نصّ آخر

يقول :

كأنّ طفلاً بات يهندي قبل أنّ ينأم :

بأنّ أمّه - التي أفاق قبل عام

فلم يجدها ثم حين لجّ في السؤال

قالوا له : " بعد غد تعود "

لا بدّ أنّ تعود (١٠)

نلاحظ أنّ في مقطع (بأنّ أمّه - التي

أفاق قبل عام)، قد حذف خبر (أنّ)، وهذا

الخرق التركيبي يوراي خلفه دلالة باطنة،

فالعنصر المحذوف يُغيّب تركيباً يُظهر

دلالة، أو لنقل بحسب نظرية (بيرس):

إنّ هذا الحذف يُحفّز المؤلّ الدينامي

على البحث عن الموضوع الدينامي، الذي

هو إرسالية تلحّ على منزلة الأمّ، فقد

ترك الشاعر الإخبار عنها، وقد ترك أيضاً

وصفها بعد الاسم الموصول (التي)؛ لينقل

لنا ما يعتمل في ذهنه تجاه الأمّ، من نظرة

مقدّسة أعيت قريحة الشاعر عن التعبير

عنها، فترك الخبر شاغراً، وفي نصّ آخر

يقول :

وفي الصباح يا مدينة الضباب

والشمس أمنية مصدور تُدير رأسها

ودلالة التركيب مع الحذف لا تختلف

عن دلالة مع عدم الحذف، وهذه الدلالة

هي ما تمثّل الموضوع المباشر، فحين أقول:

صادق، جواباً لمن قال ما رأيك بمحمد ؟ لا

تختلف دلالتها عندما أقول: محمد صادق،

من حيث إثبات صفة الصدق لمحمد، ولكنّ

مع العمل الإبداعي، فإنّ المؤلّ الذات

يتلقّى الحذف دينامياً باحثاً عن أسبابه

وهذه الأسباب ترتبط مباشرة بنفسية

المنتج، ومشاعره تجاه القضية المتحدث

عنها (٧)، ليجد لها دلالة معينة، وهذه

الدلالة ستكون هي الموضوع الدينامي. فكلّ

كلام مهما كان شكله لا بدّ أنّ يقوم على

تجربة، أو يُعبر عن أفكار، أو يتوسّم إلى

إيضاح موقف نقدي.

وقبل أنّ نبدأ بالمادة التطبيقية، نشير

إلى أنّ العلاقة بين المؤلّ المباشر والمؤلّ

الدينامي مختلفة في محور التركيب، وبيان

ذلك أنّ في محور الاختيار كان الموضوع

الدينامي يُغيّب الموضوع المباشر، ويبنى

على أفضاضه دلالة أخرى، أمّا مع التركيب

الذي يحتوي على الحذف ؛ فالموضوعان

يتواجدان معاً، إذ يضطلع المدلول المباشر

ببيان دلالة التركيب من وجهة تواصلية،

في حين أنّ الموضوع الدينامي سيظهر من

طريق قراءة سيكولوجية لدوافع المنتج التي

تظهر على سطح التركيب بعملية الحذف.

ومن جميل الحذف الدينامي عند بدر

شاكر السياب، ما أجراه في حوار بينه،

وبين الصدى في قوله :

أصبح بالخليج : يا خليج

يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى

فيرجع الصدى

كأنّه النشيج

يا خليج

تعان.

اجمعُ شعارات جميع الأنظمة

وأمسح بها

ويُبل على كل تقارير مصير

الأُمم المتحدّة (١٣)

إنّ حذف مفعول الفعل (مسح)

يُظهر موقف الشاعر الساخط تجاه هذه

الأنظمة، فترك مكان المفعول شاغراً،

يحيل على معنى أنّ الشاعر لم يجد اللفظ

المناسب الذي يُعبّر عن سخطه. ففساد

الأنظمة السياسية يفوق الوصف اللفوي،

وهذا ما دعا الشاعر إلى ترك ذكر المفعول.

ومن أمثلة الحذف الدينامي، قول

الشاعر مشتاق عباس معن :

كاذبة ...

والغسني يقول :

((حَجِيكَ مطر صيف

م يبلل اليمشون)) (١٤)

تبدأ القصيدة بجملة إسنادية قد

حُذف منها أحد ركني الإسناد (المبتدأ)،

وسدُّ فراغ النظام التركيبي لا يخبرنا أكثر

من إسناد صفة الكذب إلى المتحدّث عنها،

بمعنى أنّه الموضوع المباشر؛ لكنّ الحذف

في العمل الإبداعي لا يكتفي بتقديم المعنى،

إنّما يضمّر موقف الشاعر، ويضمّن

أحاسيسه، أو موقفه، والمؤوّل الذات يحاول

رصد هذه المضمرات بوصفها موضوعاً

دينامياً. فإنّ قرأنا النّص من هذه الواجهة،

أيّ بمجاوزة الموضوع المباشر إلى الموضوع

الدينامي، نجد أنّ حذف المبتدأ الدالّ

على المتحدّث عنها يدلّ على صغر قدرها

في ذهن الشاعر، أو أنّ ذكرها الصريح

مما يزيد من وجع الشاعر، ويجدّد آلامه،

فعرّف الشاعر عنه.

وفي نصّ آخر يعمد الشاعر إلى

الحذف أيضاً لينقل المتلقّي من الموضوع

المباشر إلى الموضوع الدينامي، يقول

الشاعر :

أسلمت أحلامي

وما زال الغبار يمدّ أعطافه ،

وما زال المكان ...

... فزارني ما كان في خلدِي نيام :

في باحة البيت العتيق

أب ...

ما زال يفتل شاريبي (١٥)

نجد في هذا النّص أنّ خبر (ما زال)

في قوله (وما زال المكان ...) محذوف،

وحذف خبر (ما زال) يصادر الموضوع

المباشر، أو يستلب منه بؤرة الاهتمام،

وهو حذف مقصود في العمل الإبداعي؛

إذ ينفث الشاعر من طريقه أحاسيسه في

تضاعيف التركيب، ليجعل الموضوع المباشر

فعلاً تمريرياً يُعبّر عن طريقه المتّجّ إلى

الموضوع الدينامي. إنّ جمال المكان حدا

الشاعر إلى ترك وصفه، وكأنّه أقرّ بقصور

اللغة عن التعبير عن مشاعره تجاه هذا

المكان، ومن جهة أخرى ترك الوصف

للمتلقي ليختار ما يستلطفه من الألفاظ؛

ليصل الأثر الذي أحدثه المكان في الشاعر

إلى المتلقّي، فالموضوع الدينامي الذي

يقروّه المتلقّي لهذا الحذف هو الحالة التي

يعيشها الشاعر تجاه هذا المكان. وفي نصّ

آخر يقول الشاعر :

القفر أجج ناضريه عمى

أبصير ،

فما وسعي على الغمض (١٦).

عند الذكر فإنّ التركيب يقدم صورة

لفظية كاملة، أمّا عند الحذف؛ فالصورة

اللفظية تكون ناقصة يسعى المتلقّي إلى

إكمالها ، والمهم هنا أنّ هذا النقص يحمل

رسالة من المبدع، ليقرأها المتلقّي بوصفها

موضوعاً دينامياً، إنّ عدم ذكر المفعول به

للفعل (ابصر)، يوسّع من دلالة المُبصر

فيجعل حركة المؤوّل الدينامي مُنشّطية

تستحضر كلّ ما يمكن إبصاره في حدود

سياق النّص، وفي هذا انتقال للدلالة من

محض الأمر بالإبصار الذي يمثّل الموضوع

المباشر إلى الموضوع الدينامي. ومن

الحذف الدينامي قول محمود درويش :

سَنَشْهَدُ فينا أباطرة يخفرون على القمح

أسماءهم كي يدلّوا

علينا. ألم تتغيّر؟ رجال على دين

خُنجرهم يذبوحون (١٧).

في هذا النّص مرّر الشاعر من طريق

حذف مفعول الفعل (ذبح) موقفه تجاه

رجال الدين، وعطل المؤوّل المباشر ليحفز

المؤوّل الدينامي على الانفتاح الدلالي

والبحث عن الموضوع الدينامي الذي ضمّنه

الشاعر في هذا الحذف، فغياب المفعول

يجعل من المذبوح مُطلقاً لا يدلّ على شيء

بعينه، فرجال الدين من وجهة نظر الشاعر

يذبوحون كلّ شيء، الأفكار والطموحات،

والأنسان بوجه عام، فالتركيب بموضوعه

المباشر يدلّ على الضّرر الذي يحدثه رجال

الدين، لكن الحذف يدفع المؤوّل الذات إلى

سدّ الفراغ الذي خلفه المفعول المحذوف

لينفتح على جميع القراءات والاحتمالات

الممكنة.

ومن أمثلة الحذف الدينامي في شعر

أدونيس :

الخيام خناجر مشدودة والحيال صلاة

علّقتنا هناك، بالنخل بالعشب

حيث الحياة

واربطينا إلى الماء

لا ماء لا عاصم والنبيون ماتوا (١٨).

معاناته في مكان واحد؛ لكنّ حاله دفعته إلى الشعور بمعاناة مطلقة تعمّ الوجود، ولا تتمثّل في مكان بعينه، والحال نفسها مع قوله لا عاصم، فحذف الخبر وجعله كوناً مطلقاً يشي بحالته أيضاً في يأسه من النصير، والمنقذ.

الكلمات بمستواها النظمي، لكنّ الحذف صادر المؤول المباشر للتركيب، واستفقر المؤول الدينامي؛ ليبحث عن موضوع دينامي يتناسب وعلة الحذف، فحذف الشاعر خبر (لا) يجعله كوناً مطلقاً يشي بحالة الضياع، واليأس الذي عاشها المتحدّث عنه في أثناء مطارته، فلو قال لا ماء هنا، أو لا ماء في دمشق، مثلاً لحدّد

في هذا النصّ يتكلم (أدونيس) على لسان عبد الرحمن الداخل في أثناء مطاردته إلى الأندلس، وفي هذا النصّ يصنع الحذف موضوعاً دينامياً، إذ في قوله (لا ماء لا عاصم) حذف خبر (لا)، وكان من الممكن للشاعر أن يقول لا ماء في دمشق، ولا عاصم فيها، مثلاً، وفي تعبير مثل هذا يكون الموضوع مباشراً تدلّ عليه

الهوامش :

- (١) ينظر : الحذف البلاغي في القرآن الكريم ٧
- (٢) العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية : ١٤٨
- (٣) ينظر : المصدر نفسه : ١٥٧
- (٤) ينظر : من دلالات الانزياح التركيبي، وجمالياته في قصيدة "الصقر" لأدونيس ١٦٢
- (٥) العلاماتية (السيمولوجيا)، قراءة في العلامة اللغوية العربية : ١٥٩
- (٦) من دلالات الانزياح التركيبي، وجمالياته في قصيدة "الصقر" لأدونيس : ١٦٠ - ١٦١
- (٧) ينظر : مباحث في علم اللغة ٨٠
- (٨) ديوان بدر شاكر السياب، مج ١/ ٤٧٧
- (٩) ينظر : آليات القراءة في الشعر العربي المعاصر ١٩٤
- (١٠) ديوان بدر شاكر السياب، مج ١/ ٢٩٩
- (١١) المصدر نفسه، مج ١/ ٢٩٩
- (١٢) الأعمال الشعرية الكاملة : ٦٧
- (١٣) المصدر نفسه : ١٢١
- (١٤) الأعمال الشعرية الوريقية غير الكاملة : ١٨٩
- (١٥) الأعمال الشعرية الوريقية غير الكاملة : ٢٢٩
- (١٦) المصدر نفسه : ٤٥
- (١٧) الأعمال الأولى، مج ١/ ١٢٨
- (١٨) كتاب التحولات والهجرة في أقاليم الليل والنهار : ٤٨

المصادر :

- ١- الأعمال الشعرية الكاملة ، أحمد مطر، إعداد وتقديم: مؤمن المحمديّ، دار الحياة للنشر والتوزيع، ط. ط ، ٢٠١١
- ٢- الأعمال الشعرية الورقية غير الكاملة ، نشأت عباس معن، دار الفراهيديّ للنشر والتوزيع، ط١٠ ، ٢٠١٠
- ٣- ألبّات القراءة في الشعر العربيّ المعاصر ١٩٤ ، د . خليل موسى ، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب ، وزارة الثقافة ، دمشق ٢٠١٠
- ٤- الحذف البلاغيّ في القرآن الكريم ٧ ، مصطفى عبد السلام أبو شادي ، مكتبة القرآن الكريم للطبع، والنشر والتوزيع ، د ط ، د ت
- ٥- ديوان بدر شاكر السياب، مج ١/ ، دار العودة، بيروت، د.ط ، ١٩٨٩
- ٦- العلاماتية (السيمولوجيا) قراءة في العلامة اللغوية العربية : ١٤٨ ، د. منذر عياشي، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط١ ، ٢٠١٢
- ٧- كتاب التحوّلات والهجرة في أقاليم الليل والنهار: ٤٨ ، أدونيس، دار الآداب- بيروت، طبعة جديدة، ١٩٨٨
- ٨- مباحث في علم اللغة ٨٠، أ. د. علي زوين ، بيت الحكمة ، ط١ ، ٢٠١٢
- ٩- دور الكلمة في العربية: ٩٢ ، ستيفن أولمان ، ترجمة : د . كمال محمد يسر ، مكتبة الشباب ، د ط ، د ت
- ١٠- من دلالات الانزياح التركيبيّ، وجمالياته في قصيدة "الصقر" لأدونيس ١٦٢ عبد الباسط محمد الزبيد(بحث) ، مجلة جامعة دمشق المجلد ٢٣ ، العدد الأوّل ، ٢٠٠٧ (شبكة النت)